أثرُ القَوَائمِ في تَكشيفِ الدّلالاتِ

عهدُ الإمام عليّ(عليه السلام) لمالك الأَشْتر أنموذجاً

(مقاربةٌ تداوليّةٌ)

أ.م.د رحيم كريم عليّ الشَّريفيّ **أ.م. د حسين علي حسين الفتليّ**

جامعة بابل /كلية الدراسات القرآنية **وزارة التربية/ الكلية التربوية /بابل**

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله الذي لاتُعدُ قوائُم نَعْمائِهِ وآلائه ، ولا تُقيَّد عناصرُ فَضْلهِ وإحسانهِ ، وصَلّى اللهُ على محور التقوى والهُدى نبيّ الرحمة محمّدٍ ، وعلى آله تِبيانِ الدّلالات والرَّشاد ، والأحكام .

أمّا بَعْدُ ، فمِن أجلِ الوصول الى نتائج مُعجِبة لمَنْهَج يُحْيي الدّلالاتِ ، ويُشِيعُ ثقافة الفهم السريع ، والتصوّر اللامتناهي للمفاهيم ، نعتمد آلية منهجيّة لفهم خطاب الإمام عليّ (عليه السلام) عبر صنع منهجيّ منظّم ، قائم على نَسْج قوائم وجداول للمفاهيم ، والكلمات المحوريّة التي تنتظم في سياق واحد من أجل حصرها مرّة ، ومقاربتها دلاليًّا مرّة أخرى ، وهي مسألةٌ _ فيما نخالُ _ لم تطرحْ من قبلُ ، ممّا يجعل دراستنا جديدة في بابها ، إذ لم نجدْ – بحسب اطّلاعنا – صنيعًا سُبقنا إليه على وَفْقِ ما نترسّمه إنْ تنظيرًا أو تطبيقًا[1]* .

وهذا ما سيتناوشُه البحثُ في ضوء مباحثتنا التي جعلت الخطاب العلوّي الإصلاحيّ_ في ظلّ عهد الإمام عليّ (عليه السلام) لواليه مالك الأشتر (رض) حينما ولّاه مصر _ مادة بحثنا ومحط دراستنا إذ ألفينا كثرة القوائم فيه .

---

[1] * **نكتة البحث الطريفة - كانت في بَدْء الأمر – فكرة قدح بها الدكتور رحيم الشَّريفيّ إلى طلبة الدراسات العليا في قسم علوم القرآن ، كلية الدراسات القرآنية في ٨/ ١١/ ٢٠١٦ م .**

وفي ظلّ هذه المعاينة ، والإلماحة المتبصرة في العهد المبارك ، نرى أنْ يقوم البحثُ على ثلاثة مطالبَ ، هيّ :

المطلب الأول : أثر القوائم في صنع الثقافة

إذ لا يخفى على المتبصّر أنّ القوائم والجداول تُعدّ أساسًا في ضبط البيانات ، والحؤول دون تشظيّها وتناثرها ، فضلًا عن أنّها تعدّ ركيزةً صلبةً في تكشيف الدلالات التي يرقبها القارئ، والمتدبّر في هذه البيانات (العناصر) التي تنتظم فيها

المطلب الثاني: القوائم في رسالة الإمام(عليه السلام) لمالك الأشتر دراسةً تطبيقيةً .

سَنَفْلي في هذا المطلب القوائم التي ترشّحت في العهد المبارك ، إذ يمثّل العنوانُ الرئيسُ للقائمة البؤرةَ المركزيّةَ ، القادرة على استدعاء مجموعة من العناصر التي تنتظم فيه ، عبر نَسْجِ شبكة من المسارات والتتابعات ، والمجالات الدّلالية التي تُعدّ عناصر متضافرة في استجلاء مفهوم العنوان .

المطلب الثالث : المقاربات التداوليّة للقوائم في عهد الإمام (عليه السلام) لمالك الأشتر .

في هذا المطلب سنقارب تداوليًّا بين العناصر المنتظمة في القائمة الواحدة بمعاينة السياقات المصاحبة لهذه العناصر سواءٌ أ كانت لفظيّةً أم مقاميّةً إذ يعملُ– بلا رَيْبَ – العنوانُ الرئيسُ على استدعائه ، فالاقترانات اللفظيّة المترشحة في هذه القوائم (العناصر) ، أو (المصاحبات) لها أثرٌ في استظهار المعاني ، وتكشيف الدّلالات .

والحمد لله ربِّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

المطلب الأول: أثر القوائم في الثقافة (مقاربة تداولية)

في هذا المطلب سنكشف الخِمار عن أمرين مهمّين، نحسب أنّهما يعينانِ على الوصول إلى المقاربات الدّلالية التداوُليّة لمصطلح القوائم من جهة، وبيان أهميتها في الثقافة الاجتماعية التداولية من جهة أخرى.

أولاً: القوائم مقاربة تأصيلية:

١. في اللغة:

تبدّى لـ(ابن فارس ت٣٩٥هـ) أصلانِ صحيحانِ لمادة (ق وم) ((يَدُلُّ أَحَدَهُمَا عَلَى جَمَاعَةِ نَاسٍ، وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي غَيْرِهِمْ. وَالْآخَرُ عَلَى انْتِصَابٍ أَوْ عَزْمٍ))[١].

ويتكشّف لنا في ضوء هذا النصّ أنَّ القائمة حاصلة في ضوء مجموعة من العناصر، وهذا ما عبّر عنه ابن فارس بـ(جماعة ناسٍ)، وربّما استعير في غيرهم، زِدْ على ذلك أنَّ القائمة تدلُّ على الحَتْم والعَزْم والضَّبط؛ لمقتضى مجيئها لهذا الغرض.

وتتجلّى دلالة لفظة (القائمة) في الاستعمال الاجتماعيّ التداوليّ، بمجموع العناصر والمكونات فيها كقائمة السرير والدابة وقوائم الخوان، وصولاً إلى قائمة الكتاب، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((وقامَتْ الدابةُ على قوائِمَها، وهذه قَائِمَةِ الخِوَانِ والسَّرِيرِ (...) وقامَت لعبةُ الشطرنج صارَتْ قائمَةٌ (...) ، ورَفَعَ الكَرْمَ بالقَوَائِمِ والكَرْمةَ بالقائِمةَ))،[٢] قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) : ((والقائمةُ واحدةُ قوائمِ الدابةِ، والورقةُ من الكتابِ، ومِن السيفِ مقبضُهُ))[٣].

ونَرْقُبُ هذا البيان تداوليًا عند مرتضى الزَّبيديّ (١٢٠٥هـ)، قال: ((القَائِمَةُ: الوَرَقَةُ من الكِتَابِ، وَقد تُطْلَقُ على مَجْمُوع البَرنَامَج ... قَائِمَةِ الخِوَانِ والسَّرِيرِ والدَّابَّةِ.! وقَوائِمُ الخِوَانِ ونَحوُهَا)) [٤].

وتأسيساً على ذلك نَرْصدُ مقاربة تداولية لدلالة القائمة ألصق بمباحثتنا وهي الورقة التي تقيّد بها الأسماء، والأشياء في صنف قائم[٥] ، وفي صورة صفوة وأعمدة ، وتكون على هيأة عناصر زمرة ، حَلْقة ، أو بنية جبريّة [٦]، باستحضار الانتظام، والتتابع، والاطّراد.

ثانياً: في الاصطلاح:

في ظلّ معاينة حدّ القائمة في الكتب التي وقفنا عليها، وجدنا أنّها . بوصفها مصطلحاً – لا تخرج عن الدلالة اللّغوية، التي رَصَدْناها في المعجمات العربية، وهي الورقةُ التي تقيّد بها

---

(١) مقاييس اللغة: ٧٣٠ (مادة قوم) وينظر: المصباح المنير، الفيومي، ٣٣٨ (مادة قوم)

(٢) أساس البلاغة: ٢٨٤. ٢٨٥ (مادة قوم)

(٣) القاموس المحيط: ٤/ ١٦٨ (مادة قوم)

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٣/ ٣١٤ (مادة قوم)

(٥) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وزملاؤه، ٢/ ٧٦٨ (مادة قوم)

(٦) ينظر معجم اللغة العربية المعاصرة ، الدكتور أحمد مختار عمر : ١/ ٣٥٣.

الأسماء، والأشياء في صفٍّ قائم أو عموديّ رَغْبةً في اختصار الزمن، والمسافات، وتحصيل المعلومات بسرعة(١).

ومن هنا فالقائمة هي الوعاء ، أو الظَّرْف الذي تنتظم فيه العناصر والأرقام وغيرها؛ من أجل تحليلها والوصول في ضوئها إلى النتائج المرجوّة(٢).

وهي أيضاً مجموعة من العناصر التي تنتظم فيها، ونرغب في دراستها، رَغْبةً في الحصول على بعض النتائج حولها، ومن هنا فهي العتبة القصدية التي يجري البحث عنها، والتي تحقّق أغراض الدراسة(٣).

ثالثاً: أهمية القوائم في الثقافة التداولية:

لا يخفى على ذي نُهية أنّ العقلَ قائمٌ على التنظيم والترتيب ، وحصر العناصر في قوائمَ وجداولَ خوفاً من تشظّيها وتناثرها، ويبدو أنّ مسايرة العقل الفعّال في هذا الصنيع يدلّ على أنّ الحياة تتطلب التعيين والتخصص، لا العبثية والفوضوية من أجل الوصول إلى المقاربات الحقيقية، والمحدّدات الواضحة للعلم المراد بيانه بَلْهَ الموضوعات والمطالب والمفردات المرغوبُ تفضيلها واستظهارها، وتفصيلها ، ومن هنا جاءت تلكمُ القوائمُ والجداول .

وتأسيساً لهذا الفَهْم والتصور انبرى العقل إلى التفكير في تقييد العلم، وجَدْوَلته في استشرافه القضية المتحدث عنها، وهذا ما نلمحه ، ونرصده في المنظومة الثقافية الإسلامية، وقبل أن نستحضر ما يعنّ لنا من مُثُل بهذا الصدد، يجدر بنا أن نستحضر حقيقة مفادها أنّ القرآن الكريم بوصفة كتاب العربية الأكبر، والمدوّنة الإلهية العظمى الذي انطوى على المسائل العقدية والفقهية والثوابت الأخلاقية والاجتماعية والقضايا الكونية والعلمية، وغيرها، التي جاءت بأسلوب غاير أساليب العرب وفارق نظمهم في السموّ والعلوّ، فجاء نسيج وحده وفريد نظمه بَلْهَ أسره للقلوب، وأخذه بمجاميعها ، ونستشعر الوجه التأثيري المتحصل لكتاب الله (عزّ وجلّ) في قلوب سامعيه، إذ نجد الوجه الإعجازي للنصّ القرآني، بوصفه وجهاً له سُهمة في وجوه إعجاز

---

(١) ينظر المصدر نفسه ، وينظر: موسوعة المصطلح في التراث العربي الديني والعلمي والأدبي، د. محمد الكتاني: ٢/ ١٩١١، والجداول الجامعة في العلوم النافعة، جاسم مهلهل الهاشمي: ٦

(٢) جمع البيانات وطرق المعاينة، د. حسين علوان مطلق: ٢٧.

(٣) ينظر: دليل الباحثين في المنهجية والترقيم والعدد والتوثيق، د. عبد الرحمن إبراهيم الشاعر، ود. محمود شاكر سعيد: ٣٦.

القرآن الكريم، قال أبو سليمان الخطّابيّ (٣٨٨هـ): ((قُلتُ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشّاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنّك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللّذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور))[١].

فالنصوص الإبداعية العالية البناء الفنية الأداء غزيرة الوجود إنتاجاً من العقلية البشرية، مهما بلغ مداها، لا تصل إلى مبلغ النص القرآني، أو تقترب منه على استحياء قطُّ، فعامل التأثير في النص القرآني ليس له نظير يشابهه، ولا يدانى بنظير ألبتة، وبهذا تجلت سمة الاختراق بين ما هو كلام بشريّ ، وما هو كلام إلهيّ، فتتحقق في الثاني قوة التأثير الخطابي، وعامل الإقناع النصيّ الذي يُغيّر حياة الإنسان كليّاً، وهذا ما لا يمكن أن يحقّقه أيّ نصّ آخر غير النصّ القرآني[٢].

وعَوْدًا على بِدْء والعود أحمدُ، فإنّنا نرى أنّ القرآن الكريم إذا ما استثنينا المدوّنات التي سبقت كتاب الله (عزّ وجلّ) سواء أكانت كتباً سماوية أم كتباً فلسفية ومقالات أخلاقية وأدبية ندّت من لدن كبار فلاسفة اليونان والرومان والهنود، فإنَّنا نجزم قاطعين أنّ القرآن الكريم قد أسّس لتغطية القوائم والجداول في المجالات التداولية الثقافية الإسلامية التي تمثّل العتبات المختارة مادّتها، ودراستها.

ويبدو أنّ النص القرآني قد ألمح إلى هذا التبويب والتفصيل المنظّم للقضايا والمسائل المختلفة التي عرضها، قال تعالى:﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾ [سورة هود:١] وقوله تعالى:﴿ **وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ** ﴾ [سورة يونس:٣٧]، وقوله تعالى:﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً** ﴾ [سورة النحل: ٨٩] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ [سورة الكهف: ٥٤].

فالتفصيل، والبيان، والتبيان، والتنوير، والنطق بالحق، والتصريف كلّها أمارات ودلائل على القوائم والجداول بوصفها آليّة من آليّات التفصيل والتبيان والبيان في كتاب (الله عزّ وجل).

---

(١) بيان إعجاز القرآن: ٦٥

(٢) ينظر: قراءات لغوية في النص القرآني (دراسة في النقد التفسيري) سيروان عبد الزهرة الجنابي: ٢.

وإذا ما رُحْنا إلى كتاب الله(جلّ جلاله) وجدنا هذه القوائم والجداول شاخصة أمامنا ، ففي سورة الفاتحة بوصفها السورة الأولى في المصحف الشريف نجد هذه التقنية حاضرة، تأمّل معنا أوصاف لفظ الجلالة (الله) على هيأة قائمة مؤلّفة من أربعة عناصر الحمد لله: (ربّ العالمين)، (الرحمن)، (الرحيم)، (مالك يوم الدين)، هذه القائمة آيات عن صفات الله عزّ وجل، وإذا ما صرفنا وجهَنا تلقاء سورة الإخلاص التي تمثّل السورة الـ(١١٢) من سور القران الـ(١١٤) نجد هذه التقنية حاضرة في وصفِ اللهِ (عزّ وجلّ) أيضاً: (قل هو الله أحد – الله الصمد– لم يلد – ولم يولد– لم يكن له كفواً أحد)

ونجد أنواع تكلّم الله (عزّ وجلّ) في الخطاب القرآني بوصفها قوائم واضحة المعالم: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا** ﴾ [سورة الشورى: ٥١] (وحيّا ، مِنْ وراء حجاب ، يرسل رسولًا)

ويمكن القول: إنّ الأمثلة كثيرة جداً لا تُعدّ ولا تُحصى نخشى من الإطالة و الخروج عن الإيجاز الذي ننشده في هذا المطلب.

ويبدو أنّ هذا التأسيس القرآني، قد أفاد منه علماء العربية، فنجدُ النحويين يركنون إلى هذا الصنيع من أجل التقييد والتبين والتفصيل قال ابن مالك(ت ٦٧٢) :

كلامنا لفظٌ مفيدٌ كاستقم واسمٌ وفعلٌ ثم حرفُ الكلم [١]

الكلمة ثلاثة أقسام اسم، فعل ، حرف، والفعل ماض، مضارع، أمر، وغيرها ... وعند البلاغيين أقسام علم البلاغة، علم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع [٢]، وغيرها من التقسيمات في معارف العربية المختلفة.

المطلب الثاني: القوائم في عهد الإمام عليه السلام (مالك الأشتر) دراسة تطبيقية

لا جَرَمَ أنَّ كلام الإمام علي (عليه السلام) الذي انتظم في النهج المبارك، وغيرها من المدوّنات التي توافرت على نقل كلامه (عليه السلام)، دليل على أنّها تنبع وتمتح من مصدر

---

(١) شرح ابن عقيل ، ابن عقيل : ١٣/١.

(٢) ينظر: الإيضاح في علوم نهج البلاغة ، الخطيب القزويني : ١١/١

واحد، إذ إنّ جلاء النصوص ورصفها وتناسب موضوعاتها ومضامينها تدلّ على هذا النبع الخلّاق، والمتح العظيم، وأنّها تجري كالسلسبيل من مجرى واحد[١].

وهذا ما فطن إليه ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ) من قبلُ قال: ((وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كلّه ماءً واحداً، ونفساً واحداً، وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكلّ سورة وكلّ آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحوّلاً وبعضه صحيحاً لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال مَن زعم أنّ الكتاب أو بعضه منحولاً إلى أمير المؤمنين))[٢]

وعندما نبصر عهده الشريف لـ(مالك الأشتر) نجد النصّ المحكم والمتقن، وهي من أمارات صحة سنده؛ وذلك لما يمتاز به هذا المتن من سبك منقطع النظير في المعنى والمبنى، وإنّ الباحث الخبير ليشعر أنّ روحاً نورانية تكمن وراء كلّ عبارة من عباراته، وأنّ هناك خيوطاً نسجت أفكاره، ومفاهيمه لا يدركها إلّا مَن توغّل في أعماقها، واكتشف الروح السامية والمعاني العالية من وراء الألفاظ التي تعبّر عنها، يقول الدكتور عباس علي الفحّام: ((ومن الغرابة (...) أن يُطعَنَ في صحة نسبة الكلام في نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) بحجّة اشتماله على التقسيم العددي (...) وهذا مخالف لما أثبته الأسلوب القرآنيّ، وأكد استعماله وأكثر من الحديث النبويّ في تقسيماته الأخلاقية ، أما الإمام علي (عليه السلام) فغير مستكثر عليه أسلوب الحصر والتقسيم العددي، لما عرف من ملكات لغوية هائلة وتنظيم فكري عجيب، يستطيع به التوليد على الأثر القرآني والنبويّ في مجالي الفنّ والموضوع الشائع فيهما هذا الاستعمال)) [٣].

وآن الأوان أن نستكشف أهم القوائم التي انطوى عليها هذا العهد المبارك، الذي يعدّ من أهمّ النصوص وأغناها، وأجمعها لمحاسن الأخلاق، والقيم والمعارف في مجالات الحكم والسياسة وحقوق الإدارة والاجتماع والاقتصاد والتربية، وهو البرنامج العلمي الأمثل لإدارة الدولة وقيادة

---

(١) ينظر: البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع في عهد الإمام (عليه السلام) لمالك الأشتر، السيد حسين بركة الشامي: ٢٢. ٢٣

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد المعتزلي : ١ / (مقدمة المحقق) ٩ .

(٣) ينظر: بلاغة النهج في نهج البلاغة، ١٨٣. ١٨٤، والأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس علي الفحام، ٢٢٠. ٢٣٥.

المجتمع،[1] في ظلّ استشراف العنوان الرئيس للقائمة الذي يمثل البؤرة المركزية القادرة على استدعاء مجموعة من العناصر والبيانات، والأرقام المنتظمة منها عبر تناسلها على سطح القائمة باسترفاد السياقات والتتابعات الكلامية.

وبدا لنا أنّ استغوار القوائم، واستنباشها من المتن العلويّ المبارك (العهد) يتطلّب خبرة وإحالة عميقة للفكرة، إذ هو ليس متيسّراً لكلّ أحد، إلا لأولئك الذين امتلكوا زمام اللغة، وخبروا دقائقها وأسرارها، ولا سيّما المتكلّم الإمام علي (عليه السلام) الذي أعمل فكره في استظهار عناصر القضيّة المراد بيانها وتنفيلها، فضلاً عن ذلك مقدرته على لَمْلَمة الأفكار وتسييجها من أجل الإحاطة بها من أنحائها جمعاء[2].

القائمة الأولى: أعمال الوالي ووظائفه:

١. جباية الخراج ٢. جهاد العدو ٣. استصلاح الأهل ٤.عمارة البلاد.

قال الإمام علي (عليه السلام) : ((هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا وَ اسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَ عِمَارَةَ بِلَادِهَا))[3] هذه الكلمات الأربع (الجباية، الجهاد، الاستصلاح، العمارة) تمثّل عناصر وأرقاماً وبيانات فهي مرتكزات رئيسة، وأركان مهمة تقوم عليها الدولة.

فالعنصر الأول: يمثّل المدار الاقتصادي للدولة، والثاني: يمثل المدار العسكري والأمني، والثالث: يعني بالجانب الإداري والاجتماعي والأخلاقي، والرابع: يتصل بالجانب العمراني الموصول بتنمية البلاد.

ويتجلّى لنا أنّ البؤرة الرئيسة للقائمة هي مسؤولية الحاكم اتجاه شعبة، إذ تنحصر مهامه، وترتكز في أربعة عناصر حدّدها الإمام (عليه السلام) باستشراف تنامي فكره الذي يستدعي نوعاً من الرؤية في حصر الفكرة باسترفاد عناصر منتظمة مستوفية.

---

(١) ينظر: البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع، ٢٨.

(٢) ينظر: بلاغة النهج في نهج البلاغة، ١٨٠.

(٣) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام: ٤٢٦ – ٤٢٧.

ومن الحقيق بالذكر أنّ الإمام علي (عليه السلام) على الرغم من أنَّه قد قدم عنصر (جباية الخراج) ، وأخر عنصر (عمارة البلاد) إلّا أنّه في مطاوي العهد الشريف نراه ينبّه مالكاً على تقديم عمارة الأرض على استجلاب الخراج عند التزاحم، والعمل بالمرجوح دون الراجح [١] قال (عليه السلام): ((وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ وَ مَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَ أَهْلَكَ الْعِبَادَ وَ لَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا))[٢] .

القائمة الثانية: صفات الوالي والقائد الإيمانية:

١. تقوى الله (جلّ جلاله) ٢. إيثار طاعة الله (جلّ جلاله) ٣. اتّباع أحكام الله (جلّ جلاله) وفرائضه وسننه. ٤. نصرة الله (عزّ وجلّ) بالقلب واليد واللسان. ٥. كسر النفس عن الشهوات، ومنعها من المآرب غير صالحة.

قال (عليه السلام) : ((أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ إِيْثَارِ طَاعَتِهِ وَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَ سُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا وَ لَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَ إِضَاعَتِهَا وَ أَنْ يَنْصُرَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِقَلْبِهِ وَ يَدِهِ وَ لِسَانِهِ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَ إِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ وَ أَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَ يَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ))[٣].

رصد الإمام علي (عليه السلام) الوصايا الخمس في إصلاح النفس وهي مقدمات لازمة في تحلي الولاة بها، قبل تولي إدارة البلاد، والقيام بأمر العمران، هذه الإشارات العلوية لا تختصّ بوالٍ دون آخر، ولا بلد من البلدان، إنّها تشمل الجميع من أجل تذوّق السعادة المنشودة، والمستقبل المأمول.[٤]

وبدا لنا أنّ الإمام (عليه السلام) قد استثمر المعجم القرآني في سرد هذه العناصر المتصلة بالقائمة ، هذا التثمير الماتع الناجع يمثل قرينة سياقيّة عظيمة الموضوع عالية البيان، قال

---

(١) فرائد الأصول: الشيخ مرتضى الأنصاري: ٢/ ٧٦٩.

(٢) نهج البلاغة: ٤٣٦

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٦

(٤) ينظر: ميثاق إدارة الدولة (في عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر، الشيخ زين العابدين قرباني: ١٠٢.

تعالى: ﴿ وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ)) [سورة البقرة :١٩٧] وقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)) [سورة محمد :٧] وقوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [سورة فاطر : ١٠]

القائمة الثالثة: قائمة ذخائر العمل الصالح والسعادات:

١. العمل الصالح: (كبح جماح النفس، البخل في رغباتها)، ٢. التعامل مع الناس (الرحمة لهم، المحبة لهم، اللطف بهم ، العفو والصفح) ٣. الابتعاد عن عداوة الله (عزّ وجلّ). ٤. عدم الندم على العفو. ٥. عدم التبجّح بالعقوبة ٦. عدم التسرع على عمل فيه سعة من العفو. ٧. ترك الغرور بإقامة الحدّ.

قال الإمام علي (عليه السلام): ((فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَامْلِكْ هَوَاكَ وَ شُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ وَ أَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَ الْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَ اللُّطْفَ بِهِمْ (...) فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَ صَفْحِكَ مِثْلِ الَّذِي تُحِبُّ وَ تَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَ صَفْحِهِ فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَ وَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَ اللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ وَ قَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ وَ ابْتَلَاكَ بِهِمْ وَ لَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ وَ لَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَ رَحْمَتِهِ وَ لَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ وَ لَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ وَ لَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً)) [١]

ممّا لا شكّ فيه أنّ خير ما يذخره الإنسان لدنياه وآخرته هو العمل الصالح؛ لأنّ المال إلى نفاد وزوال، قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [سورة الكهف : ٤٦] والباقيات الصالحات هي الرصيد الذي يختزنه الإنسان في كتاب لا يضلّ ربي ولا ينسى، وإنّ من أصدق مصاديق العمل الصالح أداء العبادات الشرعية الواجبة والمستحبّة، وقضاء حوائج الناس، وعدم اتّباع الهوى والشهوات[٢]

ونلمح الرحمة والمحبة للناس بوصفهما عنصرين أساسين من عناصر نجاح القائد، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ [سورة الانبياء : ١٠٧].

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢٧ .

(٢) ينظر: البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع: ١٥٩. ١٦٠

القائمة الرابعة: معايير قبول الأعمال لدى الإنسان

١. أوسطها في الحق. ٢. أعمّها في العدل. ٣. أجمعها لرضى الرعية، قال الإمام علي عليه السلام: ((وَ لْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَ أَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَ أَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ)).[١]

لا جرم أنّ الإمام (عليه السلام) قد ترسّم عناصر ثلاثة متظافرة في استظهار حب الأمور لدى الوالي، من أجل ضمان سعادة الناس وإحراز رضاهم، وقد استعمل الإمام صيغة أمرية مؤدّاة بالفعل المضارع المقترن بـ(لام الطلب) قاصداً الوجوب زد على ذلك توخّى عليه السلام استعمال اسم التفضيل أربع مرّات، من أجل شدّ العناصر في القائمة مع البؤرة الرئيسة (عنوان القائمة) أحبّ الأمور، إذ جاءت العناصر الثلاثة مبتدئة باسم التفضيل (أوسطها، أعمّها، أجمعها).

القائمة الخامسة: صفات المُبعدين عن المشاورة.

١. البخيل ٢. الجبان ٣. الحريص ٤. وزير الأشرار ٥. الشريك في الآثام ٦. عون الأثمة ٧. أخو الظلمة.

قال الإمام (عليه السلام): ((وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ وَ لَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَ لَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَ الْجُبْنَ وَ الْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَ مَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ وَ إِخْوَانُ الظَّلَمَةِ))[٢]

ويتجلى لنا في تقسيمات الإمام (عليه السلام) الدقة، والتثبّت من سرد عناصر القائمة، فضلاً عن ذلك بيان صفة كلّ عنصر إتماماً للمعنى، وإزادة في الفكرة والمضمون، ولا يغيب عن الذهب تراتبية هذه العناصر بحسب قوّتها في السلب.

---

(١) نهج البلاغة:٤٢٩

(٢) نهج البلاغة: ٤٣٠.

القائمة السادسة: طبقات الرعيّة:

١. جنود الله ٢. كتاب العامّة والخاصّة ٣. قضاة العدل ٤. عمّال الإنصاف والرفق ٥. أهل الجزية والخراج ٦. مسلمة الناس ٧. التجار ٨. أهل الصناعات ٩. الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة.

قال الإمام (عليه السلام): ((وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ وَ لَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ وَ مِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَ الْخَاصَّةِ وَ مِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ وَ مِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَ الرِّفْقِ وَ مِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَ الْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَ مُسْلِمَةِ النَّاسِ وَ مِنْهَا التُّجَّارُ وَ أَهْلُ الصِّنَاعَاتِ وَ مِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ))[١]

في هذه اللوحة من كلام الإمام (عليه السلام) نجد تعمّقاً في الخطاب العلويّ حينما يقسّم الرعية طبقات، معطياً كلّ طبقة حقها ومستحقّها، وفاقاً لأثرها في المجتمع الإنسانيّ، فهو (عليه السلام) يؤسّس للمدينة الفاضلة التي قوامها العدل والإنصاف، وأساسها التعاون والتحابب والتوادد.[٢]

إنّ هذا التقسيم الأنثروبولوجي الرائع للمجتمع من لدن الإمام (عليه السلام) يوحي بدراية طبقات المجتمع وتصوّره الحقيقي المدعوم بالأدلة على الفهم الكامل بالمنظومة المجتمعية كافّة.

القائمة السابعة: واجبات الجنود ومسؤولياتهم:

١. حُصُون الرعية. ٢. زَيْنُ الوُلاةِ ٣. عِزُّ الدين ٤. سُبُل الأمن.

قال الإمام (عليه السلام): ((فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وَ زَيْنُ الْوُلَاةِ وَ عِزُّ الدِّينِ وَ سُبُلُ الْأَمْنِ وَ لَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَ يَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ))[٣] .

أبان الإمام (عليه السلام) بتقسيم محكم واجبات الجنود ومهامّهم، بعناصر أربعة أُدّيت بمركبات إضافية ناقصة، ويلحظ أنّ الجامع لهذه التقسيمات الأربعة هو الغرض الأمني المتمثّل

---

(١) المصدر نفسه : ٤٣١ – ٤٣٢ .

(٢) ينظر: معالم إنسانية الإمام عليّ (عليه السلام) في ضوء عهده لـ(مالك الأشتر) دراسة تحليلية (مخطوط)، د. رحيم الشريفي، ود. حسن كاظم أسد: ١١.

(٣) نهج البلاغة: ٤٣٢

بحفظ البلاد والعباد، فأعظم به من غرض عظيم، ومن هنا نلمح أنّ الإمام قد سنّ لهم قانوناً لحفظ حقوقهم، وحقوق عوائلهم.

القائمة الثامنة: صفات الجندي المثالي:

١. الناصح لله (جلّ جلاله)، ولرسول الله (صلّى الله عليه وآله) والإمام المعصوم (عليه السلام). ٢. نقيّ الجيب. ٣. الحليم. ٤. بطيء الغضب. ٥. قابلٌ للعذر. ٦. رؤوف بالضعفاء. ٧. قويّ. ٨. صبور. ٩. غير مستكين. ١٠. من أهل المروءة.١١. ذو حسب. ١٢. أصله كريم. ١٣. تاريخه مشرّف (حَسَن) ١٤. شجاع. ١٥. كريم. ١٦ . سمح.

قال الإمام (عليه السلام): ((فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِإِمَامِكَ وَأَنْقَاهُمْ جَيْباً وَ أَفْضَلَهُمْ حِلْماً مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ وَ يَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ وَ يَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ وَ مِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ وَ لَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَ السَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَ الشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ))[1]

نقش الإمام (عليه السلام) مسرداً تفصيلياً بصفات الجنود، مستغرقاً في ذكرها؛ فهي تمثّل حقلاً دلالياً ، ويتبدّى لنا أنّ عظمة مهمّة الجندي، وجلالة مسؤوليّته تتطلب صفات خاصّة أشار إليها الإمام (عليه السلام)، وهي صفات عظيمة المضمون، جليلة القدر.

القائمة التاسعة: صفات القاضي:

١. أفضل الرعية . ٢. لا تضيق به الأمور. ٣. لا تمحّكه الخصوم. ٤. لا يتمادى في الزلّة. ٥. يتابع الحق إذا عرفه. ٦. لا تشرف نفسه على طمع. ٧. يتقصّى الفهم. ٨. وَقوف بالشبهات. ٩. أخوذ بالحجج. ١٠. قليل التبرّم بمراجعة الخصم. ١١. صبور في تكشّف الأمور. ١٢. قويّ عند اتّضاح الأمور. ١٣. لا يزهو بالإطراء. ١٤. لا يُستمال للإغراء.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٣٢ـ ٤٣٣

قال الإمام (عليه السلام): ((ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ وَ لَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ وَ لَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ وَ لَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ وَ لَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ وَ لَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ وَ أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَ آخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ وَ أَقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ وَ أَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الْأُمُورِ وَ أَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ وَ لَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ))[1]

نبصر كثرة عناصر هذه القائمة التي حفلت بكلمات الإمام (عليه السلام) بخصوص القضاء، وصفات القاضي؛ لأنه من المراكز الحسّاسة في الدولة الإسلامية، إذ اشترط الإمام عليه السلامفي القضاة أن يكونوا أفضل أبناء الأمة تقوًى وورعاً وكمالاً ونزاهةً، إذ تُعدّ من العناصر المشرّفة والبيانات العظيمة[2]

القائمة العاشرة: واجبات الوالي تجاه القاضي:

١. تعاهد أحكامه الصادرة. ٢. إكرامه وبذل العطاء له. ٣. إنزاله منزلة رفيعة.

قال الإمام علي (عليه السلام): ((ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ وَ افْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ وَ تَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ وَ أَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى وَ تُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا))[3]

حرص الإمام (عليه السلام) على إسباغ القاضي جملة من النعم الظاهرة المشجّعة، والحوافز السخيّة؛ من أجل صيانة القضاء والإبقاء على مهابته، لأنَّه بصلاح القاضي، وقوّته يصلح القضاء ويتّسم بالقوة والمهابة، ومن هنا جاءت عناصر هذه القائمة مؤكدة الثقة التامة بأحكام القاضي وتعاهدها، وإجزال العطاء المادي والمعنوي له، وإنزاله المنزلة الرفيعة، مهابة الناس من جهة، ولا يمدّ عينه إلى رشوة أو هبة أو عطية وإلى ذلك؛ لعلم الإمام أنّ القضاء أهمّ جهاز في الدولة وهذا ما ألفيناه في بيان علة هذه العناصر في الخطاب العلويّ.

---

(١) المصدر نفسه : ٤٣٤ – ٤٣٥ .

(٢) ينظر: المعالم الحضارية في نهج البلاغة، باقر شريف القرشي: ٦٧

(٣) نهج البلاغة: ٤٣٥.

القائمة الحادية عشرة: معايير اختيار العمّال:

١. الاختبار. ٢. الابتعاد عن المحاباة في اختيارهم. ٣. استعمال أهل التجربة. ٤. العفّة والحياء. ٥. قدمة في الإسلام.

قال الإمام (عليه السلام): ((ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَاراً وَ لَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَ أَثَرَةً فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَ الْخِيَانَةِ وَ تَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَ الْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَ الْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً وَ أَصَحُّ أَعْرَاضاً وَ أَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً وَ أَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً))[1]

ترسّم الإمام (عليه السلام) معايير وضوابط جليلة في اختبار العمّال باسترفاد تقنيّة التفصيل من أجل استيفاء الدلالات، والإحاطة بها، إذ كشف عن ماهية كلّ عنصر من هذه العناصر التي انتظمت في هذه القائمة، وهذا ما نستشرفه في النصّ المبارك، ولا يخفى استلماح ثيمة الأفضلية والأحسنية في النصّ بلحاظ كثرة أسماء التفضيل فيه من نحو: أكرم، أصحّ، أقلّ، أبلغ، زد على ذلك معاينة دلالات الكلمات، (اختباراً) توخّ منهم، من أهل البيوتات الصالحة والمتقدّمة؛ لأنّ الإمام (عليه السلام) في باب استظهار معايير التعيين الصائب، وضوابط الاختبار الموفّق.

القائمة الثانية عشرة: صفات كُتّاب الديوان:

١. استصفاء الخيّر والمحمود السيرة. ٢. شاكر للنعمة. ٣. فطن لا يعرف الغفلة. ٤. مطيع. ٥. يثق بنفسه. ٦. قويّ في التصريح. ٧. عالم بالأمور. ٨. له منزلة وأثر في القوم. ٩. أمين.

قال الإمام(عليه السلام): ((ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ وَ اخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَ أَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُوهِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ وَ لَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ وَ إِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ فِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَ يُعْطِي مِنْكَ وَ لَا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ وَ لَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ وَ لَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَ اسْتِنَامَتِكَ وَ

(١) نهج البلاغة: ٤٣٥.

حُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَ حُسْنِ خِدْمَتِهِمْ وَ لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَ الْأَمَانَةِ شَيْءٌ وَ لَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً وَ أَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً...))[1]

ويتجلى الأمن الثقافي في عناصر هذه القائمة المتّصلة بصفات الكتّاب، إذ حرص الإمام (عليه السلام) على سرد صفات الكاتب الذي يجدر بالوالي أن ينتبه عليها، ويحرص على وجودها فيه، فهو موضع سرّه، ويده اليمنى، والأمين على صناعة إنشاء الكتب، والدواوين والرسائل والوصايا التي تخرج من دار الولاية والإمارة.

القائمة الثالثة عشرة: أقسام التجار وأهل الصناعات:

١. المقيم منهم. ٢. المضطرب بماله. (المتردّد به بين البلدان) ٣. المترفّق ببدنه (المكتسب).

قال عليه السلام: ((ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَ ذَوِي الصِّنَاعَاتِ وَ أَوْصِ بِهِمْ خَيْراً الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَ الْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ وَ الْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ))[2]

شخّص الإمام (عليه السلام) أقسام التجار وذوي الصناعات في ثلاثة عناصر، إذ أُدّيت بأسماء الفاعلين: المقيم، المضطرب، المترفّق، لأنّ الثلاثة من جنس واحد، فناسب بينها.

القائمة الرابعة عشرة: أعمال التجّار الإيجابية:

١. موادّ المنافع (أصلها). ٢. أسباب المرافق (ما ينتفع به من الأدوات والآنية)[3]
٣. جُلّاب البضائع من الأماكن القريبة والبعيدة. ٤. أمان من العوز والفقر.
٥ . اطمئنان ووثاقة بمعاملاتهم التجارية.

قال الإمام(عليه السلام): ((فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَ أَسْبَابُ الْمَرَافِقِ وَ جُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَ الْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَ بَحْرِكَ وَ سَهْلِكَ وَ جَبَلِكَ وَ حَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا وَ لَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ وَ صُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ))[1]

---

(١) المصدر نفسه ٤٣٧.

(٢) نهج البلاغة: ٤٣٨.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق السيد هاشم الميلاني: ٤٨٨.

فقد عدّ الإمام(عليه السلام) خمسة عناصر من قائمة أعمال التجّار الجيدة، إذ جاءت على هيئة خمس جمل مؤكّدة بـ(إنّ) المشبهة بالفعل على نسق يكاد يكون متشابهاً.

القائمة الخامسة عشر: صفات التجّار السلبية:

١. الضيق الفاحش. ٢. الشحيح القبيح. ٣. المحتكر. ٤. المتحكّم بالبِياعات.

قال الإمام (عليه السلام): ((إِنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً وَ شُحّاً قَبِيحاً وَ احْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ وَ تَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ وَ ذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَ عَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) مَنَعَ مِنْهُ وَ لْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَ أَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَ الْمُبْتَاعِ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ وَ عَاقِبْهُ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ))[٢].

فالمتأمّل في النصّ يجدْ أنّ الإمام قَدْ أبانَ عن صفات التجّار السَّلبيّة من عسر المعاملة والبخل، وحَبْس المطعوم، ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلَّا بأثمانٍ فاحشةٍ، وقد أطنَبَ الإمام(عليه السلام) بصفة الاحتكار، لما لها من مضرّة للعامة، ومذمّة على الولاة.

ونرصد في النص العلويّ المعايَن قائمة صغرى (البيع السَّمْح) إذ انتظمت في عنصرين؛

الأول: الميزان العدل، والآخر: الأسعار العادلة.

ويتبدّى لنا أنّ تداخل القوائم في النصّ العلويّ دليل على الرؤية العلوية الثاقبة، والإحاطة الوسيعة بأحوال المجتمع.

القائمة السادسة عشرة: أصناف الطبقة السفلى:

١. المساكين. ٢. المحتاجين. ٣. أهل البؤسى. ٤. الزَّمنى.

---

(١) نهج البلاغة : ٤٣٨.

(٢) المصدر نفسه : ٤٣٨.

قال الإمام(عليه السلام): ((ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَ الْمُحْتَاجِينَ وَ أَهْلِ الْبُؤْسَى وَ الزَّمْنَى))[1]

القائمة السابعة عشرة: مساويء احتجاب الوالي عن الرعية:

١. شعبة من الضيق. ٢. قلّة علم بالأمور. ٣. اشتباه الأمور وخلطها عند العامة. ٤. تصغير الرعية للعظيم من الأمور. ٥. تعظيم الرعية لصغار الأمور. ٦. تحسين الرعية القبيح. ٧. تقبيح الرعية الحسن. ٨. خلط الرعية العمل الصالح بالعمل الطالح (الحق بالباطل).

قال الإمام(عليه السلام): ((أَمَّا بَعْدُ فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ وَ قِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ وَ الِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ وَ يَعْظُمُ الصَّغِيرُ وَ يَقْبُحُ الْحَسَنُ وَ يَحْسُنُ الْقَبِيحُ وَ يُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ))[2]

أبان الإمام (عليه السلام) عن دراية واسعة بمساوي الاحتجاب عن الرعية، عارفاً بنتائجه ومآلاته، ولا يخفى التسلسل الواعي لهذه العناصر التي تمثل بيانات واضحات للقائمة الرئيسة.

القائمة الثامنة عشرة: وصايا تعامل الوالي مع البطانة (الحاشية):

١. المنع من الاستئثار والتطاول وقلة الانصاف. ٢. عدم المِنحةِ من الأرض. ٣. التمسك بالحقّ.

قال الإمام(عليه السلام): ((ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَ بِطَانَةً فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَ تَطَاوُلٌ وَ قِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ وَ لَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَ حَامَّتِكَ قَطِيعَةً وَ لَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَئُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ وَ عَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَ الْبَعِيدِ وَ كُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِباً))[3]

---

(١)نهج البلاغة : ٤٣٨..

(٢) المصدر نفسه : ٤٤١.

(٣) المصدر نفسه .

القائمة التاسعة عشرة: فوائد الصلح المحمود:

١. الدعة للجنود. ٢. الراحة من الهموم. ٣. أمن للبلاد.

قال الإمام (عليه السلام): ((الْحَقِّ وَ لَا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ و لِلَّهِ فِيهِ رِضًا فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ وَ رَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَ أَمْناً لِبِلَادِكَ))[١]

نلحظ أنّ الإمام (عليه السلام) قد استوفى أقسام فوائد الصلح، وهي أقسام جوهرية عامة، بكلمات قصار.

القائمة العشرون: عواقب سفك الدماء:

١. جَلْبُ النّقمة. ٢. سوء العاقبة. ٣. زوال النعمة. ٤. قِصَرُ العُمُر.

قال الإمام(ع): ((إِيَّاكَ وَ الدِّمَاءَ وَ سَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ وَ لَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ وَ لَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَ انْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا))[٢]

وعى الإمام(عليه السلام) مَعلَم حقن الدماء، وحفظها إذ إنّ شرافة الإنسان وقداسته هو أساس الوجود، ومن هنا فإنّ سفك دمه بغير وجه حقّ يوجب عواقب لا تُحمد، ونتائج لا تسرّ.

ولا بدّ من القول: إنّ هناك قوائم ندّت من هذا العهد المبارك دسسناها لقلّة عناصرها، واختلاط بعضها بالقوائم التي ذكرناها، وكذلك رغبة في الإيجاز والاختزال.

المطلب الثالث: المقاربات التداولية في قوائم عهد الإمام(عليه السلام):

في هذا المطلب سَنَقْلي أهم المقاربات التداوُليَّة التي نَحْسَبُ أنّ العهد العلويّ المبارك قَدِ انطوى عليها، وسيكون الإيجاز والاختزال الطريق المُثْلى تماشيًا مع سنن البحث العلميّ تارةً، ولكون البحث متّصِلاً بتكشيف القوائم والجداول التي انتظمت في العهد الشريف، وإنّ الاستغوار في تلكم المقاربات التداولية قد يُبْعدنا عمّا يَمَمْنا وقَصَدْنا تارةً أخرى.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٤٢.

(٢) المصدر نفسه .

إنّ العناصر أو البيانات التي تحصّلت من القوائم التي سردناها من قبل في المطلب الثاني، – نقطع جازمين – من أنّها جاءت مطابقة للمجتمع الإسلاميّ آنذاك من جهة أنّها تلاطف المجال التداولي وتغازله، وأنّ العهد الشريف يمثّلُ – بلا شكّ – مجتمع الدراسةِ.

ويَظْهَر أنَّ المقاربات التداوُليّة أصبحت مَأْلوفة وسائدة في الدراسات اللسانيّة الحديثة، ولا سيّما في تحليل النصوص المختلفة سواءٌ أكانت التراثية أم المعاصرة، إذ لا تكتفي هذه المقاربات على القراءة، والرؤى من داخل النصّ، بل تستدعي القراءة الفاحصة والدقيقة قراءة الأفكار والمقاصد باستشراف الواقع المعيش فيه، ومعاينة الظروف والقرائن المختلفة سواء أكانت الحالية أم المقامية المحيطة بالنصّ، وكذلك التبصرة بالعوامل النفسية والاجتماعية والتاريخية المتصلة بالنصّ[١]

وهذا ما ألفيناه في عهد الإمام علي (عليه السلام) لـ (مالك الأشتر)، فليس العهد نصّاً أدبياً سارحًا في الخيال، أو نظريات مثالية مجرّدة لا تمتُّ إلى الواقع بلحمة ونَسب، إنَّما هو منهج واقعي، وتعاليم وقواعد وأسس حاضرة في المجتمع الإنساني جسّدها أمير المؤمنين (عليه السلام) في حكومته الراشدة على الأرض، وفي تجربته السياسية والإدارية المعقّدة في إدارة الدولة[٢] ((لقد جسّد الإمام عليّ (عليه السلام) خرائط القيم وسلالمها السياسية الإدارية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية في أبهى صورة، وأجمل تمثيل، فتلمح القائد السياسي والإداري والإمام الإنساني المثاليّ، والمعلم التربويّ وغيرها))[٣]

وتترسَّم المقاربات التداولية في العهد الشريف باستكشاف حقيقة: أنّ نصوص هذا العهد ودلالاته، ولا سيّما القوائم والجداول والعناصر التي انتظمت فيها تزخر بالقيم والمبادئ والقوانين، وتشعُّ بالتعاليم الأخلاقية والإنسانية من نحو: معلم إصلاح المجتمع، والتعايش السلميّ، وحبّ الفقراء والإحسان إليهم، والعفو والصلح والعدل، وحقن الدماء، وغيرها،[٤] وهي بطبيعتها لا ترتبط بالماضي أو تقف عند زمن الإمام عليّ (عليه السلام)، إنّما تلاطف الحاضر والمستقبل، ولا سيّما المجتمعات البشرية – اليومَ – أحوجُ ما تكون إليها خصوصاً في هذا الزمن الذي يشهدُ

---

(١) ينظر: البرنامج الأمثل لإدارة الدولة وقيادة المجتمع، ٢٤، والتحليل الإحصائي للبيانات، ٢٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ٤٠.

(٣) إسهام الحكومة العلوية المثالية في رمزية مدينة الكوفة (مخطوط)، د. رحيم كريم الشريفي، ٩.

(٤) معالم إنسانية الإمام علي (عليه السلام) في ضوء عهده لـ(مالك الأشتر) دراسة تحليلية، د. رحيم كريم الشريفي ود. حسن كاظم أسد: ٢٠.

صراعًا حضاريًا في الفكر والإرادة والهُوِية، كما يشهد هيمنة الغرب، ونظام العولمة، وظلم الحكومات المستبدّة وتعسّفها[١].

ومن المقاربات التداولية التي نَرْقُبُها في العهد الشريف، ما يأتي:

أولاً: المعجم القُرآنيّ والحديثي:

استثمر الإمام (عليه السلام) في عهده المبارك المعجم القُرْآنيّ والحديثي فنجد الذوبان والانصهار الكامل في كتاب العربية الأكبر (القرآن الكريم) إذ تمثل كتاب الله (جلّ جلاله) تمثيلاً عميقاً، فنجد الاستحضار والاستشراف الواعيين للنصّ القرآني، وكذلك السنّة النبوية المطهّرة، فقد انسربت نصوص قرآنية ومضامين ودلالات قرآنية وحديثية في النهج المبارك، ولا سيّما العهد الشريف[٢]

ونستشرفُ هذا المتحَ الخلّاقَ من النبعِ الصافي القرآن الكريم، والموردِ العَذْب (السنةِ المطهّرةِ) في ضوء حكم الإمام (عليه السلام) بالنصّ الجليّ، قال ابن طاووس الحليّ (ت٦٤٤هـ): ((اللّهم صلّ وسَلّم وزدْ وباركْ على السيد المطهّر والإمام المظفّر والشجاع الغضنفر أبي شُبّر وشُبير (...) وليّ الدين الوالي الولي السيد الرضيّ الإمام الوصيّ الحاكم بالنصّ الجليّ المخلص الصفيّ (...) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه)))[٣]

ونرصد هذا التثمير الماتع في العهد المبارك في ظلّ الإشارات البيّنات لدى الإمام (عليه السلام) عند حديثه عن عناصر قائمة الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة، قال (عليه السلام): ((وَ مِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ وَ الْمَسْكَنَةِ وَ كُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ وَ وَضَعَ عَلَى حَدِّهِ فَرِيضَةً فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ (صلى الله عليه وآله) عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً)) [٤] وقال (عليه السلام) في ضوء استحضار عناصر قائمة أعمال الوالي المرضيّة: ((وَ ارْدُدْ إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا يُضْلِعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ وَ يَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ

---

(١) ينظر: البرنامج الأمثل لإدارة الدولة: ٦٢.

(٢) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس الفحام، ٨٣.

(٣) منهج الدعوات ومنهج العنايات: ٣٣٦.

(٤) نهج البلاغة : ٤٣٣

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ فَالرَّدُّ إِلَى اللَّهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ وَ الرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ))[1]

ويَسْتحْضِرُ الإمام (عليه السلام) السياقات القُرآنية عند سَرْدِه عناصر قائمة (فوائد الصلح) قال عليه السلام: ((وَ لَا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ و لِلَّهِ فِيهِ رِضًا فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ وَ رَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَ أَمْناً لِبِلَادِكَ))[2] قال تعالى:﴿ **وَالصُّلْحُ خَيْرٌ** ﴾ [سورة النساء/ من الآية ١٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [سورة الأنفال / الآية ٦١] .

أمّا فيما يتّصل بالمعجم الحديثي، فنجد المتحَ المثمرَ من النبع الصافي كلام المصطفى (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ونَرْصُد هذا الأثر الحديثي في تعابير الإمّام علي (عليه السلام)، قال: ((وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ وَ تَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عَامّاً فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَ تُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَ أَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَ شُرَطِكَ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ))[3].

وقال عليه السلام مبيّناً عناصر صلاة الوالي: ((وَ قَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ فَقَالَ صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ وَ كُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً))[4]

لا جَرَمَ أنّ الإحالة المرجعية لها أثر في فهم الخطاب، إذ تعطيه بعدًا حقيقيًا في الأداء، إذ إنّ تتمة الفائدة في الكلام تتوقّف على مدى مطابقة الخطاب للواقع، فكلّ وحدة لغوية تتوافر على الجوانب الاتية: الصيغة اللفظية، والدلالة، والمرجعيّة (الخارج)[5]

---

(١)نهج البلاغة: ٤٣٤

(٢) نهج البلاغة: ٤٤٢

(٣) المصدر نفسه: ٤٣١.

(٤) المصدر نفسه : ٤٤٠.

(٥) ينظر: الخطاب القرآني (دراسة في البعد التداولي)، د. مؤيد آل صوينت: ٧١

ومن هنا فإنّ استثمار المرجعيات هو عملية ((استرجاع لمدلولات ذكرت في مرحلة سابقة، أو عملية استقدام مدلولات يتوقع القارئُ مجيئها بمرحلة لاحقة في النصّ، وهذه العملية تتمّ عن طريق العنصر الإحالي الذي يتطابقُ في الخصائص الدلالية مع العنصر المحيل إليه))[١].

وعَوْدٌ على بَدْءٍ ، فإنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) كان على درجة كبيرة من الاستثمار الواعي لكلام المصطفى (صلى الله عليه وآله) فقد كان مخصوصاً من دون الصحابة بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ((لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله وإذا لم يسال ابتداه النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتثقيف ولم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك بل كانوا أقساما فمنهم من يهابه أن يسأله وهم الذين يحبون أن يجئ الاعرابي أو الطارئ فيسأله وهم يسمعون ومنهم من كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعاني اما بعبادة أو دنيا ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال ومنهم المبغض الشانئ الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه وانضاف إلى الامر الخاص بعلي عليه السلام ذكاؤه وفطنته وطهارة طينته وإشراق نفسه وضوءها وإذا كان المحل قابلا متهيئا كان الفاعل المؤثر موجودا والموانع مرتفعة حصل الأثر على أتم ما يمكن فلذلك كان علي عليه السلام – كما قال الحسن – البصري رباني هذه الأمة وذا فضلها ولذا تسميه الفلاسفة امام الأئمة وحكيم العرب))[٢]

وتتجلّى هذه المقاربة التداوليّة في استحضار قول النبي (صلى الله عليه وآله) في قول الإمام (عليه السلام) في قائمة الصفات السلبية للتجار، قال: ((ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ(...)، فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) مَنَعَ مِنْهُ وَ لْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعاً سَمْحاً بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَ أَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَ الْمُبْتَاعِ))[٣]

---

(١) رسائل ابن الأثير دراسة في ضوء علم اللغة النصيّ (رسالة ماجستير) علي صبري علوان: ٢٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعتزلي: ١١/ ٤٨

(٣) نهج البلاغة: ٤٣٨.

ولا يخفى الاستشرافُ الثَّبْتُ من كلام المصطفى (صلى الله عليه وآله) في أحاديثه: ((لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ))[1] وقوله صلى الله عليه وآله: ((مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ، ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ))[2]

أما فيما يتصل بالجنبة الثانية من نصّ الإمام (عليه السلام) المؤدّاة بأسلوب الأمر بصيغة الفعل المضارع المقرون بلام الأمر (وليكنْ البيع سمحًا) ، استشرافه حديث المصطفى صلى

الله عليه وآله: ((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى))[3]

ولم يكتف الإمام (عليه السلام) بالاستثمار القرآني والحديثي بوصفهما مجالين تداوليّين عظيمَين بل نراه يلاطف مجالات تداولية أخرى تنبع من البيئات الصالحة والسنن المحمودة قال (عليه السلام) : ((وَ لَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَ اجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ وَ صَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ وَ لَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَ الْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا))[4]

وقال (عليه السلام) : ((وَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا (صلى الله عليه وآله) أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا))[5]

ثانياً: قواعد التخاطب اللساني:

أصبحت قواعدُ التخاطُب اللسانيّة من المسلّمات التحاوُريّة، وهي تعني مجموعة من المعايير والأسس التي يفترض أنْ يقفَ عندها كلُّ متكلّم في أثناء حديثه مع غيره، بمعنى أنّ الكفاءة التداوُلية تفرض نفسها في رسم خريطة التواصل والتحاوُر بين المتكلم والمخاطب، وهذا ما نبّه

---

(١) صحيح مسلم : ٣ / ١٢٢٨

(٢) سنن ابن ماجه : ٢/ ٧٢٩ .

(٣) صحيح البخاري : ٣/ ٥٧ .

(٤) نهج البلاغة: ٤٣١.

(٥) المصدر نفسه : ٤٤٥.

عليه (أوستن) في مقالته (المنطق والتحاور)،[١] إذ وجّه بحثه نحو استخراج مجموعة من المبادئ المنظمة للتواصل المثالي، واهتمّ أيضاً بالمعاني الضمنية اهتماماً واضحاً، وهذا دليل على أنّ تجليات المعنى لا تحكمها قواعد لغوية دلالية فحسب، بل تحكمها طريقة إنجاز الملفوظ داخل المقام، والمبادئ العامة للتواصل.

ومن هنا فإننا سنبصر قاعدتين من هذه القواعد التي تترشح من التخاطب اللساني القائم على الحوار، والتواصل المنظم، ولا سيما في عهد الإمام (عليه السلام) لـ (مالك الأشتر).

١- الافتراض المسبق:

يوجه المتكلِّم حديثه إلى الافتراضات المسبقة اللازمة لنجاح كلّ تواصل كلاميّ، على أساس ما يفترض- سلفاً - أنَّه معلوم له، وقد لوحظ أنّ الافتراض السابق يكون مرتبطاً ببعض العبارات اللغوية دون بعض، فإذا قال رجلٌ لآخر: أَغلق النافذة، فالمفترض – قبلاً – أنّ النافذة مفتوحة، وأنّ هناك مسوغًا يدعو إلى إغلاقه، وأنّ المخاطب قادر على الحركة، وأنّ المتكلم في منزله الآمر، وكلّ ذلك موصول بسياق الحال وعلاقة المتكلم[٢]

لا جَرَمَ أنّ الخطاب أصبح على وَفْق مقولات التداولية الحامل اللغويّ لمقاصد المتكلم موجّهاً إلى المتلقيّ، وبما أنّ الخطاب يولد في سياق تخاطبي، وبلغة مشتركة فهو يقوم على افتراضات مسبقة، ومن هنا فالافتراض المسبق يتّسع ليشمل المعلومات العامّة، وسياق الحال والعرف الاجتماعي، والعهديين المخاطبين الذي يجعل المتلقي يفهم مراد المتكلم[٣]

ومن المواضع التي رصدناها في عهد الإمام (عليه السلام) لـ(مالك الأشتر)، قوله (عليه السلام) في بيان عناصر قائمة (صفات المستشار الإيجابية): ((وَ لَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَ يَعِدُكَ الْفَقْرَ وَ لَا جَبَاناً يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ وَ لَا حَرِيصاً يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَ الْجُبْنَ وَ الْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ))[٤]

---

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ٩٦، واللسان والميزان أو التكوثر الفعلي، طه عبد الرحمن: ٢٣٨.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمد أحمد نحلة: ٢٦، ٢٧.

(٣) ينظر: التداولية واستراتيجية التواصل: ذهبية حمو الحاج: ٢٢٧ .

(٤) نهج البلاغة: ٤٣٠ .

كلام شريف عالٍ يستقي من مورده الحكماء، فإنّ الجامع بين هؤلاء هو سوء الظنّ بالله (عزّ وجلّ) وقد ألمح ابن أبي الحديد المعتزلي إلى مقولات الافتراض المسبق في الكلام العلويّ المعاين، فالجبان يقول في نفسه إن أقدمتُ قتلت، والبخيل يقول: إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرت، والحريص يقول: إن لم أجدّ واجتهد وأدأب فاتني ما أروم، وكل هذه الأمور ترجع إلى سوء الظنّ بالله (جلّ جلاله)، ولو أحسن الظنّ الإنسان بالله، وكان يقينه صادقاً لعلم أنّ الأجل مقدّر وأنّ الرزق مقدّر، وأنّ الغني والفقر مقدّران وأنَّه لا يكون من ذلك إلّا ما قضى الله تعالى[١]

وقال (عليه السلام) في بيان وتنفيل عناصر قائمة صفات الوالي: ((أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَ إِيْثَارِ طَاعَتِهِ وَ اتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَ سُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا وَ لَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَ إِضَاعَتِهَا))[٢]

تبدّى لنا أنّ الإمام (عليه السلام) في بيان عناصر هذه القائمة (صفات الوالي) أنّه قد اعتمد على الافتراض المسبق، فقد وَعى فهم مالك للفرائض والسنن التي ذكرها الله (عزّ وجلّ) في كتابه، بمعنى أنّ الافتراض مسلّمٌ به من لدن المتكلم الإمام (عليه السلام) والطرف الآخر في الخطاب (المخاطَب) مالك الأشتر، ولا يخفى تلكم الفرائض والسنن، سواءٌ أكانت أصول الدين أم فروعه (التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد)، وكالصلاة والصيام والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الأمانة وقول الحقّ وغيرها، ولا بُدّ من القول: إنّ مواضع الافتراض المسبق في العهد المبارك كثيرة، بسبب المعرفة المشتركة بين المتخاطبَين الإمام (عليه السلام) ومالك الأشتر (رض)) إذ إنّ المعرفة المشتركة بينها تعدّ الأرضية التي يتّكئ عليها طرف الخطاب في التواصل والتحاور.

٢- القول المُضْمَر:

هو القاعدة الأخرى من قواعد التخاطب اللّساني، ويرتبط بوضعية الخطاب ومقامه على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية، ومن هنا فإنّ القول المضمر

---

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ٩/ ٣٠ .

(٢) نهج البلاغة: ٤٢٧

هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خواصّ سياق الحديث[١]

إنّ الكلام لا يعني دائماً التصريح، بل يعني أحياناً حمل المتلقي على التفكير في شيء غير مصرّح به، ومن هنا فالعبارات اللغوية تصنّف صنفين المعاني الصريحة، وتدلّ عليها الصيغة الحرفية للعبارة والمعاني الضمنية ونكشف عن قرائن الخطاب وسياقاته[٢]

وقد تبدى لنا في ضوء استغوار العهد الشريف أنّ الإمام (عليه السلام) قد أكثر من القول المضمر، ومن ثمّ استتار المعاني الضمنية ويظهر أنّ اضطمام النصّ الشريف على القوائم المتعددة والمتنوّعة، وما تنتظم فيها من عناصر جعل من هذه القاعدة أن تحوز مساحة واسعة، زد على ذلك تقصّد الإمام (عليه السلام) إلى هذا الصنيع من الإضمار من أجل تحقيق مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

تأمّل معنا قوله (عليه السلام) : ((ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَ جَوْرٍ وَ أَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ وَ يَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ وَ إِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ))[٣] يتجلّى الإضمار القوليّ: من ذكر البلاد من دون التصريح بها، وهي (مصْر) وذكر الدول التي سبقت حكم مالك، وهي الحكومات التي سبقته من زمن الخليفة عثمان بن عفّان، وما ابتليت به من جور وما نعمت من عدل.

وقوله (عليه اسلام): ((فَقَالَ صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ))[٤] فقوله عليه السلام كصلاة أضعفهم كناية استعملها الإمام عن المريض، والذي به عاهة وغير ذلك.

---

(١) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، ٣٢

(٢) ينظر: اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، د. مرتضى جبار كاظم، ٧٥.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٧.

(٤) المصدر نفسه : ٤٤٠ .

خاتمة البحث ونتائجه:

حان الحين أن نستجلي أهمّ قطاف هذا البحث (أثر القوائم في تكشيف الدلالات) عهد الإمام (عليه السلام) لـ (مالك الأشتر) أنموذجاً.

أولاً: تبدّى لنا أنّ القوائم والجداول، وما تنطوي عليها من عناصر وبيانات لها أهمية في حصر المعلومات وتقييدها ومن ثمّ فهمها واقتناص دلالاتها بسرعة.

ثانياً: وظّف الإمام علي (عليه السلام) في عهده المبارك مجموعة كثيرة ومتنوّعة من القوائم والجداول وقد انتظمت فيها أرقام وعناصر متعددة ، وهو أمر يدلّ على الإحاطة المعرفية الوسيعة للإمام علي (عليه السلام)، ودرايته بالمجالات التداولية الثقافية السائدة آنذاك، زد على ذلك المنظور المستقبلي والاستشرافي الذي ترسمه (عليه السلام).

ثالثاً: استثمر الإمام علي (عليه السلام) في ظل معاينتنا للقوائم التي ترشحت من العهد الشريف القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهذا ما ألفيناه في العهد المبارك في ضوء الإحالات المرجعية الماتعة عليهما، تصريحاً وتلميحاً.

رابعاً: كشفت القوائم التي تحصلت في العهد المبارك أنّ الإمام (عليه السلام) قد وعى فطنة المتلقي مالك الأشتر من جهة، والباصر بالمجال التداولي (الواقع المعيش) لذا رأينا ظهور قاعدتي التخاطب اللساني (الافتراض المسبق)، و(القول المضمر) في تلكم القوائم.

خامساً: في ظلّ معاينة القوائم والجداول التي تحصلت من العهد الشريف وجدنا أنّ الأفعال الكلامية غير المباشرة التي تمثل قوًى إنجازية وتأثيرية (سياقات إنتاجية وتوليدية) هي الأكثر وروداً وبزوغاً، بخلاف الأفعال الكلامية المباشرة.

والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطاهرين.

مصادر البحث ومراجعه